حملة الملك الفرنسي لويس التاسع على تونس سنة (668-669هـ/1270م).

أ(ة). فهيمة سعودي.
ماجستير في التاريخ الوسيط

الملخص:

دامت الحركة الصليبية حسب الدراسات العربية والأجنبية مدة ثلاثة قرون منذ نهاية القرن الخامس الهجري إلى غاية نهاية القرن الثامن الهجري (نهاية القرن الحادي عشر إلى غاية نهاية القرن الرابع عشر الميلادي)، تزعمتها دول الغرب اللاتيني وعلى رأسها فرنسا التي شاركت في معظم حملاتها، حيث كان تواجدها مكثّفا في الحملات الأخيرة ومن أشهرها التي قام بها الملك الفرنسي *لويس التاسع* (Louis IX) على مصر والشام سنة (646-652هـ/1248-1254م)، ثم حملته على تونس سنة (668-669هـ/1270م) وهو مجال دراستنا.

جاءت الحملة الصليبية الثامنةكنتيجة لفشل الحملة السابعة التي قادها الملك لويس التاسع على المشرق الهادفة إلى استرجاع مملكة بيت المقدس. ولكن تغيير مسارها إلى تونس يعود إلى أسباب دينية، سياسية واقتصادية شجعت *الملك لويس* والغرب اللاتيني على القيام بحملة جديدة على المسلمين. ومن جملة الأسباب الدينية التي دفعت الملك لويس التاسع القيام بالحملة على تونس هي دعوة البابا *جريجوري الرابع* (Grégoire IV) الغرب اللاتيني إلى إعادة بناء وإحياء الديانة المسيحية، أما الدوافع السياسية التي يمكن إدراجها لقيام الحملة الصليبية على تونس هو ذكر الخلاف الموجود بين الإمارات الصليبية والمسلمين في المشرق، أما الأسباب الإقتصادية يشمل الحديث على القوة التجارية الجنوية التي لها أهداف اقتصادية هامة في تونس حيث كانت جنوة تتحكم في الملاحة البحرية في الحوض المتوسط.

انطلقت الحملة الصليبية في سنة (669هـ/ جويلية 1270م) من ميناء آغ مورت ثم اتجهت الحملة إلى ميناء كلياري (Cagliari) بجزيرة سردينيا التابعة لبيزة، وفي أثناء هذه الرحلة عقد الملك مجلس حربي في (669هـ/ 12-13 جويلية 1270م) حضره كبار مستشاري القادة العسكرية الذين ظنوا أن الحملة

ستكون إلى الأراضي المقدسة، وفي مجريات الاجتماع أعلن الملك أن الحملة ستتجه إلى تونس.

فشلت الحملة الصليبية الثامنة في نهاية المطاف عندما توفي الملك لويس التاسع على ساحل قرطاج، ويعود سبب أيضا إلى خيانة شقيق الملك شارل دانجوا (Charles d'Anjou)بتواطئه مع التجار الإيطاليين، فكلا الطرفين لديه مصالح شخصية وأطماع مادية،علاوة على ذلك الثروة والقوة العسكرية التي كانت تتمتع بها تونس في تلك الفترة .

اتخذ الصراع بين المسلمين والمسيحيين صورا متعددة عبر عصور التاريخ ومن بين حلقات هذا الصراع التي شغلت الباحثين والدارسين هي الحركة الصليبية، فتناولوها بالدراسة والتحليل من زوايا مختلفة. وكما اختلفت نظرة المؤرخين إلى تلك الحركة تبعا لاختلاف ميولهم ومفهومهم لها، ولا زالت الدراسات تطالعنا بين فئة وأخرى بآراء جديدة عن مفهومها وبدايتها ونهايتها، ولا يتسع المجال لاستعراض الآراء التي ظهرت حول أسباب قيامها وماهيتها.[1]

وعموما دامت الحركة الصليبية ثلاثة قرون من نهاية القرن الخامس الهجري إلى غاية نهاية القرن الثامن الهجري (نهاية القرن الحادي عشر إلى غاية نهاية القرن الرابع عشر الميلادي)، تزعمتها دول الغرب اللاتيني وعلى رأسها فرنسا التي شاركت في معظم حملاتها، حيث كان تواجدها مكثّفا في الحملات الأخيرة ومن أشهرها التي قام بها الملك الفرنسي *لويس التاسع*(Louis IX)[2] على مصر

---

[1] راجع: نسيم جوزيف، الوحدة وحركة اليقظة العربية إبان العدوان الصليبي،ط1، دار المعارف، الإسكندرية، 1966م، ص ص7- 10؛ أرنست باركر، الحروب الصليبية، نقله إلى العربية الباز العريني، ط4، دار النهضة العربية، بيروت،1967م، ص ص 15 وما بعدها.

[2] ولد في 25 أفريل 1214م، في مدينة بواسي *(*Poissy*)* القريبة من مدينة باريس*(* Paris *)* . يعتبر الملك لويس الابن العاشر للملك لويس الثامن *(* Louis VIII*)* *(* 621-624هـ/ 1223- 1226م) ومن أم قشتالية الأصل تدعى *بلانش دي كاستي(*Blanche de castille) (624-650هـ/ 1226- 1252م)، كما ينتمي إلى الأسرة الملكية آل الكابية *(*Capet*)* التي حكمت فرنسا لفترة طويلة من الزمن(789- 1328م) ونجحت خلالها في توطيد دعائم الملكية الإقطاعية ومحاربة كل من يعرقل نشاطها التوسعي في فرنسا، نشأ الملك لويس التاسع في جو عائلي يسعى دائما إلى تحقيق التوسع والنجاح، وتلقى تربية دينية مسيحية صارمة على يد والدته التي زرعت في نفسه الإيمان بالله وتلاوة كتاب الإنجيل، والإنصات إلى مواعظ الأعياد، فسخرت كل ما أوتيت من قوة لتجعل منه خادم المسيح. أنظر:

Le Goff ; 30Joinville (J.), Histoire de Saint Louis, édit. Hachette, Paris,1882, p. p.31; Lavisse (E.) & Rambaud (A.), (J.) , Saint Louis, édit. Gallimard, Paris ,1996, Histoire générale du VIème siècle à nos jours, (l'Europe féodale, les croisades 1095- 1270), édit. Armand Colin , Paris,1893, t.2, pp. 377- 378.

والشام سنة (646-652هـ/1248-1254م) ثم حملته على تونس سنة (668-669هـ/1270م) وهو مجال بحثنا.

جاءت الحملة الصليبية الثامنة كنتيجة لفشل الحملة السابعة التي قادها الملك *لويس التاسع* على المشرق الهادفة إلى استرجاع مملكة بيت المقدس[1]. ولكن تغيير مسارها إلى تونس يعود إلى أسباب دينية، سياسية واقتصادية شجعت *الملك لويس* والغرب اللاتيني على القيام بحملة جديدة على المسلمين.[2]

ومن جملة الأسباب الدينية التي دفعت الملك لويس التاسع القيام بالحملة على تونس هي دعوة البابا *جريجوري الرابع (* Grégoire IV*)* الغرب اللاتيني إلى إعادة بناء وإحياء الديانة المسيحية لما رأى فيها من تراجع في شمال إفريقيا عامة وفي تونس خاصة[3] لذا لجأ البابا إلى *الملك الفرنسي* لويس لما يتصف به من روح دينية مشبعة بتعاليم المسيحية الكاثوليكية المتعصبة، فاستغل *الملك لويس* هذه الفرصة لتجسيد هدفه المنشود في تنصير المسلمين، واتخاذ تونس قاعدة للوصول إلى الأراضي المقدسة وانتزاعها من أيدي المسلمين، ومن أجل حماية حقوق رعاياه في تونس طلب من السلطان الحفصي مستنصر بالله بدفع إتاوة كحق من حقوق الرعايا المسيحيين كما جاء في رسالته: "**... أود أن تخبروا مولاكم تمنياتي له بالسعادة وأنني أود أن أظل حبيس سجون المسلمين مدى الحياة ولا أرى نور الشمس مطلقا إن كان المقابل أن أقوم بتعميده هو وشعبه**" [4].

اهتم الرهبان الفرنسيين بعادات وتقاليد التونسيين، ولهذا الغرض قاموا بإرسال بعثات علمية لدراسة اللغة العربية. وحاولوا جذب المسلمين إلى صفّهم، واستخدموهم لتجسس ونقل الأخبار والإطلاع على الأوضاع الداخلية في تونس، ومن بين الرهبان الذين ساهموا في هذه السياسة الراهب *ريموندي بنافورت* *(*Raymond de Penafort) [5] الذي تعامل مع *ريموند مارتين* (Raymond

---

[1] سعيد عاشور عبد الفتاح، الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى،ج2،ط1، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1963، ص 1051.

[2] Bretiere (A.), Les causes de l'expédition de Saint Louis, édit. Braham, Paris, sd, pp.1-2

[3] محمد حمام، الغرب الإسلامي والغرب المسيحي في القرون الوسطى، ط1، منشورات كلية الآداب،الإسكندرية،2002م،ص ص142-143.

[4] Bretiere (A.) , op.cit, pp. 5-6.

[5] هو أول من دعا إلى إرسال بعثات التبشيرية لدراسة الأوضاع الداخلية لتونس، أنظر: Ibid., p.6

(Martin[1]، من أجل تشجيع *الملك لويس* على القيام بحملة على تونس[2]. استغلت كلا الشخصيتين تعصب وتشدد *الملك لويس* على الديانة المسيحية خاصة *ريموند دي مارتين* الذي تربطه علاقات جيدة مع *السلطان الحفصي* بتفسيراته الدائمة له حول الديانة النصرانية، هذا ما أوحي له من ميل *السلطان الحفصي* إلى الديانة والقدرة على تعميده وهذا بفضل نشاط المبشرين والمحترفين من الفرانسيسكان[3] والدومنيكان[4]، وكل هذه العوامل دفعت *الملك لويس* على التفكير في شن حملة أخرى لتحرير الأراضي المقدسة وذلك عبر تونس.

أما الدوافع السياسية التي يمكن إدراجها لقيام الحملة الصليبية على تونس هو ذكر الخلاف الموجود بين الإمارات الصليبية والمسلمين في المشرق، فقد تزايد الصراع الصليبي الإسلامي في الأراضي المقدسة إلى غاية ظهور *الظاهر بيبرس* حاكما على مصر سنة (658هـ/1260م)، الذي يعتبر من أقوى السلاطين حيث استطاع الانتصار على المغول في معركة عين جالوت، وعلى الصليبيين في بلاد الشام [5]. وعند سماع *السلطان المصري* خبر وصول الأسطول الفرنسي على الساحل الشامي مع عدد من ملوك النصارى الذي اهتم بالثغور والسفن ونظم صفوف جيوشه كما أمر بتجهيز العساكر إلى مدينة عكا لوضع حدا لهجمات المغول المتحالفين مع الصليبيين، وما زاد الوضع سوء هو استحواذ الفرنسيين على معظم المناطق الموجودة في الشام مما أثار غضب *السلطان* فدخل معهم في صراع حاد انتهى بانتصار المسلمين، واسترجعوا عكا التي تعتبر آخر المعاقل الصليبية في الشام[6].

بعد انهيار الإمارات الصليبية في المشرق، طلب الصليبيون من السلطان الظاهر بيبرس الدخول في المفاوضات فوافق على الطلب وألزمهم شروطا أهمها:

---

(1) أستاذ يهودي درس اللغة العربية في تونس، وكان مرتبطا بعلاقة ودية مع *الملك لويس*، أنظر : Idem.

(2) Bretiere (A.) , op.cit, p. 6.

(3) ظهرت هذه الفرقة سنة 1210م من قبل *فرانسوا داسيز* حيث كون حركة تدعو إلى الزهد والتقشف في المال في المجتمع الكنسي واللائيكي أقرها البابا جريجوري التاسع رسميا سنة 1223م وهو *هونوريوس الثالث* (Honorius III) كما يعتبر الفرانسيسكان مخلصين للعادات الكنيسة القديمة، أنظر : Le Goff(J.), op.cit, p.60.

(4) هي هيئة دينية تأسست على يد *دومينجو* الإسباني الأصل، تهدف هذه الجماعة إلى محاربة المتمردين عن المسيحية الكاثوليكية عن طريق انخراطهم في محاكم التفتيش. أنظر: Le Goff(J.), op.cit, p.116

(5) أحمد مختار العبادي، تاريخ المغرب والأندلس، مؤسسة الشباب للناشر، الإسكندرية، 2007، ص 127.

(6) نفسه، ص ص600-601.

استعادة الأراضي التي تم انتزاعها من قبل، تحرير الأسرى المسلمين [1]. تماطل الصليبيون في تحقيق شروط بيبرس، فعزم على تحرير العديد من القلاع بالقوة كمدينة أنطاكية ومملكة بيت المقدس وطلب الصليبيين النجدة من الإسبيتاريين ولكن دون جدوى فانتقل خبر معانات الصليبيين إلى الملك الفرنسي فقرر عقد اجتماع سنة (665 هـ/1267م) يحضره كل من أولاده الكبار *فليب* و*جون ببير* Jean Pierre)*، والكونت دي البريتاني* ليعلن عن حملته[2]، كما حضر صديقه الحميم *جوانفيل* الذي أراد الاعتذار عن الحضور حيث قال: " **اضطرت لحضور الاجتماع دون سبب عقده...** " [3]، لكن لسوء حظ الصليبيين كانت صحة *الملك لويس* في تدهور ولم تكن لديهم الأسلحة اللازمة للثأر من المماليك[4].

أما الأسباب الإقتصادية يشمل الحديث على القوة التجارية الجنوية التي لها مآرب اقتصادية هامة في تونس، فقد كانت تتحكم في الملاحة البحرية في الحوض المتوسط [5]، اتخذت جنوة شعارا " **نحن جنويون أولا وأخرا**" وتجلى ذلك في قتالهم الدائم مع البنادقة والبيازنة بسبب تضارب المصالح التجارية فيما بينهم حول تونس، ومن خلال هذا الصراع رأى *الملك لويس التاسع* أنها فرصة مواتية لتحضير جيشه بالعدة والعدد للقيام بالحملة فقام بإرسال مراسلات إلى حكام المدن التجارية الإيطالية على رأسهم جنوه التي صادفت أمامها خيارين؛ إما الموافقة على الإعداد للحملة أو رفض هذا الطلب، ففي حالة الموافقة فإنهم سيواجهون خطر ضياع مراكزهم التجارية في مصر والشام مما سيعود عليهم بالضرر الجسيم على دخلهم القومي، أما في حالة المعاكسة ستؤول النتيجة إلى غضب كل من البابا والملك لويس التاسع اللذين سيتجهان إلى عقد تحالفات مع البنادقة، إلا أن الجنويين وجدوا ضالتهم في الحفصيين من أجل الخروج من هذا المأزق نظرا للعوامل التالية : تفضيل الحفصيين التجار البنادقة والصقليين عنهم، اشتراكهم في القتال مع

---

[1] الكناني، حملة لويس التاسع الصليبية على تونس1270/668-669هـ، مطبعة الإشعاع الفنية لمنشأة المعارف، الإسكندرية ،1985،ص ص137-138.

[2] 2. Bretiere (A.) op.cit, pp. 1-

[3]Joinville(J.), op.cit, p. 305

[4] ابن أبي دينار، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، مطبعة النهضة، تونس، 1950، ص ص120-121.

Sayous (A.), Commerce des Européens à Tunis(XII-XVI), édit. Société d’éditions géographiques, Paris,1929 , pp.50-52. [5]

فريدريك الثاني ضدهم، مصادرة الملك الحفصي العديد من الأموال الخاصة بالجاليات التجارية الجنوية في إفريقية مما ألحق الضرر بالدخل القومي لجنوة.[1]

انتهت العلاقة بين الجنويين والبنادقة بغزو القسطنطينية وإسقاط الحكم اللاتيني وإعادة الحكم البيزنطي بتتويج *ميخائيل باليولوجوس (*Michel paléologue*)* إمبراطورا سنة (659هـ/1261م)، عمل الجنويين على عقد تحالفات مع الإمبراطور من أجل إبعاد *شارل دانجو* شقيق *الملك لويس* لغزو القسطنطينية، وكان هدفهم من ذلك الحفاظ على مصالحهم في بيزنطة، وهنا ظهر دور البابا *كليمونت الرابع* لتهدئة الأوضاع إذ قام بتتويج *شارل* ملكا على صقلية سنة(664هـ/ 1266م) لما رأى فيه من حنكة وبطش وقدرة على التحكم في الأمور والقضاء على خلفاء *فريدريك الثاني*، وبالفعل قد تمكن شارل من إزاحة *كونراد (*Conrad*)* الابن غير الشرعي *لفريدريك الثاني* سنة(666هـ/1268م)، بعده *مانفريد (*Manfred*)* وهذا ما أدى إلى تدهور العلاقة بين *شارل* والحفصيين الذين ساعدوا آل هوهنشتاوفن في مواجهته . [2]

لقد اتبع الجنويين الازدواجية في سياستهم مع الأطراف المتصارعة من أجل تحقيق أهدافهم التجارية لذا قاموا بعقد معاهدات في الوقت الذي كان فيه الصراع محتدما بين البنادقة والجنويين، فاتصلوا *ببيبرس* وعقدوا معه معاهدة صداقة سنة(658هـ/ 1260م) من أجل كسب الامتيازات الأجنبية في المدن والموانئ الشامية[3]، كما عقد الجنوييون المعاهدة مع الحفصيين سنة (659هـ/1261م) للتعاملات الحاصلة بينهم فسعوا بكل جهدهم إلى تعويض المكانة التي انتزعت منهم من قبل، ورغم ذلك تجدد الصراع مع الحفصيين وراودتهم فكرة الثأر التي تجسدت في إقناع *شارل* لأخيه *الملك لويس* توجيه الحملة إلى تونس[4]. ساهم الجنوييون في نقل الصراع اللاتيني إلى المغرب الإسلامي، فكانت تونس هي المستهدفة نظرا

---

[1] محمد حمام، المرجع السابق، ص ص143- 144.

[2] روبار برانشفيك، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، نقله إلى العربية حمادي الساحلي، ط1، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998، ص ص90-92. للمزيد من المعلومات راجع: Sayous (A.), op.cit, pp. 5- ; Bretiere(A.)op.cit,pp. 53-506.

[3] محمد لعروسي المطوي، وثائق عن الحروب الصليبية، ط3، دار النشر والتوزيع، تونس، 1977، ص 55.

[4] مصطفى حسن محمد الكناني، المرجع السابق، ص ص88-89.

لموقعها الجغرافي المتميز والهام على الساحل الإفريقي، الذي يخدم الحركة الصليبية التي لازالت تحلم في السيطرة على العالم الإسلامي شرقه وغربه[1].

كانت سياسة الخليفة *المستنصر بالله الحفصي*[2] تقوم على حسن الجوار وإتباع سياسة التقرب مع كل الأطراف، فتقرّب إلى *شارل دانجو* ولكن وقعت بعض الأحداث الداخلية في صقلية بين البابا وية وآل هو هنشتاوفن [3] أدت إلى تدهور العلاقة بين *شارل* و*السلطان الحفصي*، وما زاد من حدة الوضع عندما رفض *السلطان مستنصر* تقديم الاستحقاقات التي كان يدفعها والده *أبو زكريا* في عهد *فريديريك الثاني*، فحاول *شارل* إقامة المفاوضات من أجل إقناع الملك ولكن بدون جدوى، إذ اتجه إلى أخيه الملك لويس بالضغط من الجنويين طالبا منه شن الحملة ضد التونسيين [4].

اختلف المؤرخون في تقدير مساهمة *شارل دانجو* لتغيير مسار الحملة وعلى رأسهم *سايوز* الذي أكد أن التجار *البروفنسيين* هم الذين ساهموا في الضغط على *الملك لويس* خاصة بعد إعدام *أبو العباس اللياني*، الذي كان لديه علاقات تجارية مع هؤلاء التجار، وبعد هذه الحادثة طلب التجار من الخليفة *المستنصر* بتقديم ثلاث مائة دينار كفدية، ولكن رفض *السلطان الحفصي* مما أدى إلى قيام الثورة ضده [5]. استغل الجنويون كل الظروف المحيطة بهم فوجهوا الأحداث التي تتفق مع مصالحهم التجارية، وكان لها أثر في تغيير مسار الحملة إلى تونس بدلا من الأراضي المقدسة [6].

أصدر البابا *كليمونت الرابع* قرارا يدعوا فيه إلى شن حملة صليبية جديدة علـــى المسلمين بقوله: "**هناك عسكر مستقر في الشرق فالساعة دانت لهم والله ســيوحد الشعب المسيحي.**" فحاول *كليمونت* تحريض وإغراء حكام اللاتين للمســاهمة فـــي تحضير الحملة[7]، وأول الحكام الذين استجابوا له هو *الملك لويس التاسع* الذي قـــام

---

(1) عبد الفتاح مقلد لغنمي، موسوعة المغرب العربي، ج5، مكتبة مدبولي للنشر، القاهرة، د ت، ص 44.
(2) هو أبو عبد الله بن زكريا الملقب بالمستنصر حكم ثمان وعشرون سنة اعتمد على سياسة المهادنة مثل أبيه، وتمتد مبايعته من طرف شريف مكة، وأهل الحجاز ولقب بأمير المؤمنين باعتباره وارثا للخلافة العباسية، أنظر : ابن أبي دينار، المصدر السابق، ص 129.
(3) Sayous (A.), op.cit, pp.66- 67.
(4) Lavisse(E.), op.cit, p.338
(5) Sayous(A.), op.cit, p.68
(6) أحمد الطويل، في الحضارة العربية التونسية، تونس للنشر والتوزيع، تونس، 1995،ص 64.
(7) Michaud (F . J.), Histoire des croisades, édit .P.U.F, Paris,1970 , t.3, pp.263-264.

بعقد مؤتمر موسع حضره ملوك وحكام أوربا ورجال الدين للبحث في أمر نجـــدة الأراضي المقدسة، وتم الاجتماع سنة (665هــ/ 1267م)، استغل *الملـــك لـــويس* ظروف الاجتماع ليعلن عن مشاركة أفراد عائلته وهدفه هو منح للحملـــة الصـــبغة الملكية[1].

بعد انتهاء أشغال المؤتمر بدأ الملك لويس يبحث عن تعزيـــز علاقاتـــه مـــع الحكام المدن التجارية وعلى رأسهم جنوه والبندقية للإسهام في توفير معدّات الحملة ولكن اصطدم الملك بصراع البنادقة مع الجنويين حـــول حكـــم القســـطنطينية[2]، تصرّف البابا بسرعة لتوسط بين البنادقة والجنويين وأسند المهمة *للملك الفرنســـي* الذي حاول تصريف أنظار التجار الايطاليين إلى التفكير فـــي الحملـــة الصـــليبية الجديدة على العالم الإسلامي[3].

واجه الملك لويس التاسع عراقيل مادية ومالية خلال تحضيراته للحملة والتـــي دامت ثلاثة سنوات(665–667هــ/1267–1269م) والسبب هو تماطل جنوه فـــي تسليم السفن اللازمة للحملة ولم يتسلّمها الملك إلا في اللحظات الأخيرة من انطلاقه، وكان ذلك عند بلوغ درجة الحرارة ذروتها.[4]

تحمل ظروف قيام حملة الملك على تونس انعكاسات سلبية على مسار الحملـــة والعنصر الفعال في ذلك هو القوة التجارية الجنوية التي لها ثقلها في حوض بحر الأبيض المتوسط، ورغم ذلك تمكن *الملك لويس* من تحمّل أعبـــاء شـــراء الســـفن والمؤن والفضل يعود للكنيـــسة الـــرومانية التي قدّمت المبالغ المالية لجنـــوه لأنّ فرنسا كانت تعاني من نقص الأموال في الخزينة الملكية.[5]

انطلق *الملك لويس* من مدينة باريس في(668هــ/ مـــارس 1270م) قاصـــدا إقليم لانجدوك جنوب فرنسا وعند وصوله إلى هناك جمع قواته وأساطيله في ميناء

---

(1) Garreau (A.), Saint Louis et son royaume, édit. Vieux Colombier, Paris , pp.188-189

(2) تمكنت مدينة جنوة من إسقاط الحكم اللاتيني في القسطنطنية وطردوا البنادقة منها وأسندوا الحكم للأسرة البيزنطية على رأسها ميخائيل باليولوجوس، علاوة على ذلك اتصلت جنوة بالسلطان المصري بيبرس وعقدوا معه معاهدة صداقة سنة (662هـ/1264م) وتحالفوا ضد البنادقة. أنظر: أحمد طويل، المرجع السابق، 47-48.

(3) الكناني، المرجع السابق، ص ص138-139.

(4) تعمّدت جنوه على تأخير انطلاق الحملة لأنها كانت مرتبطة مع المدن الساحلية الشرقية بعلاقات وامتيازات تجارية خاصة مع مصر ولهذا أرادوا الحفاظ على مصالحهم مع المسلمين وفي نفس الوقت ربح الأموال من الصليبيين. أنظر:المقريزي، المصدر السابق، ص 364.

(5)Michaud (F . J.), op.cit, p.264.

آغ مورت ثم انطلقت الحملة في 669هـ/ جويلية 1270م)[1]، وفي الثامن من نفس الشهر وصلت القوات الصليبية إلى ميناء كلياري (Cagliari) بجزيرة سردينيا التابعة لبيزة، وفي أثناء هذه الرحلة فقد *الملك لويس* بعض السفن بسبب الرياح القوية التي دمرتها مما أجبرته على التوقف في جزيرة سردينيا، أثناء توقفه هو وقواته [2] قرر عقد مجلس حربي في (669هـ/ 12–13 جويلية 1270م) حضره كبار مستشاري القادة العسكرية الذين ظنوا أن الحملة ستكون إلى الأراضي المقدسة، وفي مجريات الاجتماع أعلن الملك أن الحملة ستتجه إلى تونس [3]، مما أدى إلى انقسام الآراء بين الحضور فمنهم من يستحسن فكرة التوجه مباشرة إلى مصر والأراضي المقدسة لتحرير مدينة عكا لإنقاذها من هجمات *بيبرس*، ومنهم من يرى التوجه نحو تونس ومنها إلى الأراضي المقدسة لتحريرها [4].

بعد تزويد الأسطول بالمقاتلة أبحرت الحملة في يوم (الجمعة 669هـ /18 جويلية 1270م)[5]، وفي طريقها إلى تونس تفاءل *الملك* بالنصر وعند وصولها إلى ساحل إفريقيا الواقع أمام مدينة قرطاجة القديمة القريبة من تونس في سنة (669هـ/1270م). [6]

بلغ الجيش الصليبي حسب *ابن خلدون* حوالي ستة آلاف قائلا :"... **ولما نزل النصارى بالساحل كانوا زهاء ستة آلاف فارس وثلاثين ألف من الرجالة فكانت أساطيلها ثلاث مائة بين كبار وصغار وكانوا سبعة ملوك**"[7]، أما ابن قنفذ وصف الحملة بذات التعداد الكبير بقوله: "**....كانت في أيام *المستنصر* حوادث عظام، منها في سنة ثمان مائة وستين هجرية بتونس بسبعة من الملوك، وبكثرة من العدد والعدة والخيل، وذلك في صلاة الظهر يوم الخميس في السادس والعشرين من ذي الحجة** " [8]. بعد إتمام نزول القوات الصليبية على الساحل التونسي دون

---

(1) روبار برانشفيك، المرجع السابق، ص ص86-87. للمزيد راجع الملحق ص،14.
(2)Michaud(F . J.) , op.cit, p.275.
(3) محمد حمام، المرجع السابق، ص 192.
(4) Joinville(J.), op.cit, p.303
(5) الكناني، المرجع السابق، ص 196.
(6)ابن قنفذ، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تقديم وتحقيق محمد الشاذلي وعبد المجيد التركي،دط،دار التونسية لنشر،تونس، 1968م، ص 131.
(7) ابن خلدون، المصدر ابلسابق، ص 668.
(8)ابن قنفذ، المصدر السابق، ص 131.

معركة تذكر، نصبوا معسكراتهم ومعدّاتهم في مدينة قرطاجة وبعدها حفروا خندقا عميقا حول المدينة وحصّنوا أنفسهم ترقبا لمجيء *المستنصر بالله* [1].

بلغ *المستنصر بالله* خبر الحملة الصليبية المتجهة إلى تونس فأعد العدة [2]،قـــام بتحصين المدينة وأصلح الأسوار ونادى للاستعداد ضد العدو، ودعا الناس للجهاد، فاستجاب الناس لطلبه وعقد *المستنصر بالله* مجلس الشورى المتكوّن من المصلحين الأندلسيين المهاجرين من الموحدين والمغاربـــة وعـــرض علـــيهم إمـــا أن يـــدفع الصليبيين بالنزول إلى البر ومواجهتهم أو صدهم عن قرطاج حتى تنفذ ذخيـــرتهم، ثم يعودون إلى أدراجهم، ليستقر الرأي فـــي الأخيـــر أن يتركـــوهم ينزلـــون دون مقاومة[3].

أمر *السلطان* معظم القبائل المجاورة إليه بالاستكثار من الجيـــوش والأســـلحة، وأفادنا *ابن خلدون* أنّ *أبا هلال* صاحب بجاية وصل إلى تونس كما وصـــل معـــه متطوعين جاؤوا من الدن المجاورة لتونس ونواحيها إلى جانب العلمـــاء والفقهـــاء المرابطين الذين يشرفون على تنظيم القيادة [4]. كثّف *الســـلطان الحفصـــي* مـــن استعداداته فأرسل مبعوثين إلى صاحب مصر *الظاهر بيبرس* طالبـــا منـــه العـــون والمد، وبدأ من فوره تقوية المناطق اللازمة للقتال فضـــلا عـــن تخـــزين المـــؤن والذخيرة تحسبا لأي حصار قد يطول على تونس، فقام *بيبرس* عند وصول سفارته وتسلمه الرسالة أشرف بنفسه على العمليات العسكرية في مصر ومنها اتجـــه إلـــى توسيع إجراءاته في المناطق المجاورة للقاهرة، وأمر بتجهيـــز القـــوات اللازمـــة والمعدات لإرسالها إلى الحفصيين معلنا تضامنه مع إخوانه في تونس [5]. كما أمر بحفر الخنادق على طول الطريق الساحلي الممتد من الإسكندرية إلى تونس غربـــا، وأرسل رسالة إلى المستنصر ليخبره بما اتخذه وما سوف يتخـــذه مـــن إجـــراءات للمساعدة على مواجهة الخطر الصليبي المشترك [6]، حيـــث تقـــدّم إلـــى القبائـــل المجاورة وبلاد برقة لإنجادهم وهذا ما ساعد على رفع الروح المعنوية لدى سكان تونس.

---

[1] ابن خلدون، المصدر السابق، ص 669.
[2] نفسه، ص 666.
[3] الكناني، المرجع السابق، ص ص 206-207.
[4] ابن خلدون، المصدر السابق، ص 667.
[5] أحمد الطويل، المرجع السابق، ص ص56-57.
[6] ابن خلدون، المصدر السابق، ص 667.

اغتنم *السلطان المستنصر* فرصة سكون خصومه في تنظيماتهم فقام على الفور بإعداد العدة، وتنظيم القوات بالاستعداد للخروج للقتال ترقبا لوصول الإمدادات من المشرق من قبل *بيبرس* [1]، كما كلف *السلطان المستنصر* عددا من كبـــار قـــواداه بالإشراف على الفرق المنظّمة، وهم *إسماعيل بن أبي كلـــداس وعيســـى بـــن داود ويحي بن أبي بكر ومحمد بن عبوا*، فجمعوا عددا كبيرا من الناس للقتال وعينـــوا الفقهاء للإشراف على تنظيم الجموع وحثّهم على الجهاد في سبيل الله[2]، كما قـــام المسلمون بتسميم كافة الآبار المحيطة بالعاصمة عامة وآبار قرطاجة خاصة ممـــا كانت له إنعكسات على الأوضاع المتمثلة في نقـــص الميـــاه الصـــالحة للشـــرب للصليبيين والتي ساهمت في معاناتهم [3].

وصلت سفينة صقلية في سنة (669هـــ/ 29 جويلية 1270م) إلـــى المعســـكر الصليبي حاملة الفارس *أوليفي دي كرين (*Olivier de Carine*)* الذي التقـــى *الملـــك* وسلمه رسالة من *شارل* يعتذر عن الحضور بسبب تحالفه مع الجنوية والمســـلمين لإفشال الحملة [4].فجمع الصليبيون قواهم وهجموا قلعة المدينة الرئيســـية يـــوم 30 جويلية أين دارت معركة ضارية بين الطـــرفين التـــي انتهـــت بالفشـــل، وعجـــز الصليبيون عن احتلالها بسبب اتخاذ الجنوية سياسة المكر والخداع لبنـــي جلـــدتهم حيث تركوهم يتصارعون وحدهم مع المسلمين كما تلقوا ضربات الشمس وانتشـــار الأوبئة المعدية [5].

في الوقت الذي كان فيه الصليبيون يعانون من ضربات المسلمين قام الجنويون بالاستيلاء على الغنائم والأموال وبعدها صعدوا على الفور إلى سفنهم وأبحروا إلى عرض البحر دون علم الملك لويس[6]، الذي حاول الاستفسار عن سبب انســـحاب الجنوية المفاجئ من القائد الجنوي *بيدروا (*Pedro*)* الذي أجابه بأن ذلك التصـــرف كله من طلب القومون[7] الجنوي بصقلية، وعليه ظلت الجنوية فوق سفنهم يتمتعون

---

(1) روبار برا نشفيك، المرجع السابق، ص 91.

(2) ابن خلدون، المصدر السابق، ص 670.

(3) Michaud(F . J.), op.cit, p. 281.

(4) الكناني، المرجع السابق، ص ص211-212.

(5) نفسه، ص ص214-215.

(6)الكناني، الرجع السابق، ص ص215-216.

(7) ترجمة حرفية لكلمة قمون(commune) وكان استعمالها في العصور الوسطى للدلالة على المدن الإيطالية وكذلك الفرنسية التي استطاعت بفضل ثروتها الاقتصادية الجديدة أن تحصل على براءات تخولها علي شؤونها الداخلية وأن تصبح الحكومة فيها بيد أرباب الإقطاع والمهن.أنظر: فيشر،تاريخ أوربا في العصور

بأطيب الطعام والشراب بعيدين عن حرارة الشمس وخطر الأمراض والأوبئة التي أصابت المعسكر الصليبي [1].

عقب انسحاب الجنوية من المعسكر الصليبي بدأ الصليبيون يتساقطون بأعـــداد كبيرة ومازاد من الأزمة عدم توفر الأماكن لدفن القتلى والموتى فكـــانوا يضـــعون داخل خندق واحد حتى يضيق بهم فانتشرت الجيف والروائح الكريهة [2]، وآخرون فقدوا بصرهم بفعل الرمال الساخنة التي كان المسلمون يقذفونها اتجاههم، كل هـــذه الظروف قد زادت من تدهور صحة *الملك* الذي ينتظر أوامر القومـــون الجنـــوي لقيادة جيشه وضمهم إلى صفوف الجيش الصليبي ومده بالمؤن والذخيرة، وحســـب إجابة القائد الجنوي *بيترو*ا وهذا كله من أجل المحافظة على اتفاقهم مع المســـلمين وإفناء أكبر عدد ممكن من الجيش الصليبي من أجل إفشال الحملة [3].

بقيت الجنوية فوق سفنهم يتذرعون بالحجج الكاذبة بأنهم ينتظـــرون تعليمـــات القومون ولم يعيروا اهتماما لتوسلات *الملك لويس* بالعودة [4]، خاصة وأن المعسكر ازدادت أحواله سوءا لعدم توفر المياه الصالحة للشرب، فأغتنم المسلمون الفرصة، حيث بعث *السلطان الحفصي* في شهر أوت ثلاث فرســـان للمعســـكر الصـــليبي، فأعلنوا رغبتهم في اعتناق المسيحية، والارتداد عن الإسلام فرحبوا بهم فارتفعـــت معنويات الملك أمام هذه الفرحة فوجهوا رماح سيوفهم ضد الملك وقواته في حركة خاطفة فذعروا وحاولوا الفرار ولكنهم فشلوا أين قتل منهم ســـتون رجـــلا وعلـــى رأسهم القائد جون *روسلان* (Jean Roslan) وعاد المسلمون إلى معسكرهم سالمين، فأمر *الملك الفرنسي* بقتل الفرسان الثلاثة الذين استقبلهم في خيمته.وبهذه المواجهـــة استيقظ *الملك لويس* من اعتقـــاده فـــي رغبـــة *الســـلطان المستنصـــر* الاعتنـــاق بالمسيحية[5].

وصلت سفينة صقلية حاملة سفارة *شارل* يمثلها *أوليفي دي كرين* الـــذي يحمـــل رسالة يعلن فيها قرب وصوله ففرح الجميع واستبشروا خيرا ولكن الفرحة لم تـــدم

الوسطى، نقله إلى العربية محمد مصطفي زيادة والباز العريني،ط5، دار المعارف ،القاهرة، 1969، ص199.

[1] Garreau (A.), op.cit, p.195.

[2] Michaud(F . J.),op.cit,p.282

[3] الكناني، المرجع السابق، ص ص219-220.

[4]الكناني، المرجع السابق، ص ص221-222.

[5] أحمد الطويل، المرجع السابق، ص 64.

طويلا بسبب عدم وصول *شارل* [1] وما زاد الطين بلة وفاة جون *تريستان* وإصابة *فليب* بالحمى فزادت من تدهور حالة *الملك* الصحية وإصابته بداء الإســـهال التـــي ألزمه الفراش وشعر بخطورة الأوضاع واقتراب ســـاعته [2]، فاســـتدعى الشـــهود وأعلن آخر وصاياه كما ذكرها *جوانفيل* :"... **أوصى ولده فليب بالقيادة من بعــده وطلبه بالثأر من المسلمين لوفاة شقيقه جون وكبار قادته** " [3]. كـــما تـــرك لـــه رسالة كتبها بخط يده يطلب منه أن يدفن في كنيسة *دونيس* لأن الأرض التي مات فيها لم تعتنق المسيحية [4]، بعد الإعلان عن وصيته كان الملك يتمتم بكلمة واحدة " **أورشليم** ! .... **أورشليم** .." وهي الكلمات الأخيرة التي تلفظت فيها روحه أنفاسها ليتوفى *الملك لويس* يوم الاثنين 25 أوت 1270م وذكر *ابن خلدون* عن وفاته " **بأن الملك لقي حذفه وأصابه مرض الوباء ويقال أن السلطان بعث إليه مع *ابن جـــرام الدلاسي* بسيف مسموم كان فيه مهلكه**" [5]،كما ورد عن *ابن أبي دينار* أنّ :" **مات طاغيتهم**[6] **في عشرة محرم في سنة ستة وتسعين قيل أن *السلطان* بعـــث إليـــه بسيف مسموم وأرسل الله وباء على جيشه فمات عدد كبير**"[7].

بعد وفاة *الملك لويس* خلفه ابنه *فليب* الذي عقد العزم مع كبار القادة اللاتين على تنفيذ الوصية التي تركها له والده لمواصلة القتال ضد المسلمين والثـــأر مـــنهم [8]، وبعد يومين من وفاة *الملك* يوم الأربعاء 27 أوت 1270م وصل *شارل دانجو* أمام المعسكر الصليبي وبحجة مرض فليب وعدم قدرته على تولي القيادة العامة اقترح *شارل* أن يتولى القيادة للثأر من أجل أخيه، وبعد أن تسلّم الحكم، شرع شارل فـــي تنفيذ الاتفاق مع المسلمين الهادف إلى إفشال الحملة [9]، بعد انهزم الصليبيين فـــي الحملة رأى *شارل* أنه لا جدوى من مواصلة القتال مع الحفصيين [10].

---

[1] الكناني، المرجع السابق، ص 221.

[2] Lavisse(E.), op.cit, p. 239.

[3] Joinville(J.), op.cit, p. 307.

[4] Garreau (A.), op.cit, p.196.

[5] ابن خلدون، المصدر السابق، ص 670.

[6] هو الملك لويس التاسع.

[7] ابن أبي دينار، المصدر السابق، ص 121.

[8] Michaud(F . J.), op.cit, p. 186.

[9] محمد حمام، المرجع السابق، ص 145.

[10] الكناني، المرجع السابق، ص 233.

فشلت الحملة في تحقيق أهدافها المتمثلة في اعتناق *السلطان المستنصر* وشعبه لديانة المسيحية تحت زعامة البابوية، وعدم قدرة الحملة على إفشال وإضعاف القوى الإسلامية بالمغرب أو الفصل في وحدة المسلمين في المشرق والمغرب ضد الخطر الصليبي المشترك[1]، كما أصابت هذه الحملة المعسكر بالفشل خاصة ما ألحق صليبي الشام باليأس الذين فقدوا آخر أمل لهم في الحفاظ وإنقاذهم ممتلكاتهم من هجمات المسلمين[2].

يعود سبب فشل الحملة إلى تكثيف المسلمين الهجمات على الكيان الصليبي منذ امتداد عهد الظاهر بيبرس والسلطان المنصور قلاوون من بعده حتى تم تصفية وتحرير عكا آخر المعاقل الصليبية في الشام(669هـ/1271م)، ولقد تأسفت فرنسا للحصيلة التي وصلت إليها بعد الحملة في تونس الذين كانوا ضحية فكرة فادحة فلم يذهبوا إلى تحرير الأراضي المقدسة إنما ذهبوا للغزو والاستفادة من الممتلكات والغنائم، وهذا ما ساهم في تخفيض روح الحماسة اتجاه الدعوة الصليبية، مما يفسر عدم استجابة فرنسا لنداءات إخوانهم في المشرق[3]. كما تحصّل *شارل دانجو* والجنوية على مكافآت مادية وامتيازات تجارية ضخمة تمثلت في بنود اتفاقية الصلح التي تفيد بأن كل من الطرفين هما المستفيدين الوحيدان من فشل الحملة[4]. وعقد الجنوية معاهدة تجارية مع *السلطان المستنصر* سنة (670هـ/ 1272) التي وقعها نيابة عن السلطان الحفصي كل من القاضي *ابن الخباز وأبي الحسن يحي ابن عبد الملك* مدير جمارك تونس ومنحوا العديد من الامتيازات التي تفوق ما حصلوا عليها في المعاهدات السابقة [5].

اجتمعت أهداف التجار الإيطاليين وشقيق الملك – مع هدف الملك لويس التاسع في اتخاذ تونس قاعدة أمامية في المغرب للذهاب إلى المشرق. ولكن بدأت بوادر فشل الحملة على تونس عند تأخر إمدادات الصليبيين على ساحل قرطاج، وهي عملية مخططة من قبل شارل دانجو والجنويين الذين أرادوا عقد اتفاق تجاري مع

---

(1) أحمد الطويل، المرجع السابق، ص ص66-67.
(2) سعيد عاشور عبد الفتاح، المرجع السابق، ص ص1237-1238.
(3) سعيد عاشور عبد الفتاح، المرجع السابق، ص ص1238-1239.
(4) Mas- Latrie, Traités de paix et de Commerce (Les relation des Chrétiens avec les Arabes de l'Afrique septentrionale , édit. Henri Poulin, Paris , 1872 ,t.2, pp. 136-137.
(5) Ibid., p .138.

السلطان الحفصي مستنصر بالله، واشتد الخناق على القوات الصليبية عند انتشار مرض الطاعون على غالبية الفرسان، وداهم الوباء الملك لويس التاسع وانتهت حملته بالفشل والانهزام. عاد الصليبيون إلى مواطنهم دون أية نتيجة ايجابية لصالحهم خاصة بعد وفاة الملك وغالبية أتباعه.

وفي الأخير يمكن القول أنّ أهداف الحملات الصليبية المتأخرة مختلفة عن سابقتها إذ لم تكن مملكة بيت المقدس الهدف المنشود، لأن هذه المملكة توقف دورها المتمثل في وحدة السياسة الأوروبية المسيحية. وبدلا من ذلك أضحت الأهداف الشخصية والأطماع المادية هي العوامل السائدة في تلك الفترة. فقاد الحملات الأخيرة كل من *الإمبراطور فريدريك الثاني والملك لويس التاسع* ثم شقيقه *شارل دانجو* الذي وجه مشروعاته إلى طموحات بعيدة المدى، حيث دفع شقيقه الملك لويس التاسع إلى تغيير مسار الحملة إلى تونس وذلك من أجل الاستفادة من أملاكها وثروات سكانها.

قـــائمة المصـــادر العربية والأجنبية:

أ -*المصـــادر العربية:*

1- ابن خلدون عبد الرحمان محمد ،كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر،ج6، دط، مؤسسة الأعلمي للمنشورات، بيروت، 1971م.

2- ابن أبي دينار أبو عبد الله أبو القاسم القيرواني، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس،ط1، مطبعة النهضة، تونس، 1950م.

3- ابن القنفذ، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تقديم وتحقيق محمد الشاذلي وعبد المجيد التركي،دط،دار التونسية لنشر،تونس، 1968م.

4- المقريزي (أحمد بن علي)، السلوك في معرفة أخبار الملوك، صححه محمد مصطفى الزيادة،ط1،مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر،القاهرة،1957م.

ب -*المصـــادر الأجنـــبية:*

1- Joinville(J.), Histoire de Saint Louis , édit. Hachette, Paris,1882.

2- Mas-Latrie, Traités de paix et de Commerce (Les relation des Chrétiens avec les Arabes de l'Afrique septentrionale , édit. Henri Poulin, Paris , 1872, tome 2.

قـــائمة المراجع العربية والأجنبية:

أ -*المراجع العربية:*

1– باركر أرنست ،الحروب الصليبية، نقله إلى العربية الباز العريني، ط4، النهضة العربية، بيروت، 1967م.

2– برونشفيك روبار، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، نقله إلى العربية حمادي الساحلي، ط1، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998م.

3– جوزيف نسيم، الوحدة وحركة اليقظة العربية إبان العدوان الصليبي،ط1، دار المعارف، الإسكندرية، 1966م.

4– حمام محمد، الغرب الإسلامي والغرب المسيحي في القرون الوسطى، ط1،منشورات كلية الأداب،الرباط،1995م.

5– سعيد عاشور عبد الفتاح، الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى، ط1، ج1، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، 1963.

6– الطويل أحمد، في الحضارة العربية التونسية، دط، تونس للنشر والتوزيع، تونس، 1995م.

7– العبادي أحمد مختار، تاريخ المغرب والاندلس،دط،مؤسسة الشباب للناشر، الاسكندرية، 2007م.

8– فيشر،تاريخ أوربا في العصور الوسطى، نقله إلى العربية محمد مصطفى زيادة والباز العريني، ط5،دار المعارف بمصر،القاهرة، 1969م.

9– الكناني مصطفى حسن محمد، حملة لويس التاسع الصليبية على تونس1270م/668–669هـ، مطبعة الإشعاع الفنية لمنشأة المعارف، الإسكندرية، 1985م.

10– محمد العروسي، وثائق عن الحروب الصليبية، ط3، دار النشر والتوزيع، تونس، 1977م.

2–المـــراجع الأجنبيـــة:

1- Bretiere (A.), Les causes de l'expédition de Saint Louis, édit. Braham, Paris , sd.

2- Garreau (A.), Saint Louis et son royaume, édit. Vieux Colombier, Paris ,sd.

3- Lavisse (E.) & Rambaud (A.), Histoire générale du VIème siècle à nos jours, (l'Europe féodale, les croisades 1095-1270), édit. Armand Colin , Paris ,1893, t.2.

4- Le Goff (J.) ,Saint Louis, édit. Gallimard, Paris ,1996.

5- Michaud(F.J.), Histoire des croisades, édit .P.U.F, Paris,1970 ,t.3.

6- Sayous (A.), Commerce des Européens à Tunis(XII-XVI), édit. Société d'édition géographique , Paris,1929.